صور من الحياة

قلوب من حجر

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣ —

هبت نسمات الربيع تدفعني إلى الماضي الجميل ، فحن الفؤاد إلى مراتع الطفولة، وصبا القلب إلى ملاهي الصبا، ونزعت الروح إلى مهاد الذكرى ، هناك في القرية حيث الربيع الفض يمد سحره الرفاف، فينشر على الثرى بحراً سندسي الحواشي، مرح الأعطاف ، يبسم لهبات النسيم في رقة، ويصافحها في لين، ويعانقها في شوق ، حيث الغدير العذب ينساب إلى غير غاية ، يترنم بأناشيد الهوى ويشدو بألحان الغرام ، وهو يضم بين حبات قلبه صفيه الحبيب : شعاع الشمس الذهبي الذي يدفىء حناياه بزفرات الشوق والحنين ؛ حيث في شجرة التوت يتهادى ليهدهد من أنات الثور المعنى ونواح الساقية الشجي ؛ حيث أهلي الذين أتشوف إليهم برغم أن شواغل المال قد جرفتهم فجف فيهم الحنان وذوى المعطف ونضب الصفاء ؛ حيث الفلاح الذي يئن تحت وقرين من ضنى العمل ورقة الحال ...

وجذبتني نوازع النفس إلى القرية فطرت إليها أستجم من عناء وأتدع من كلال وأهدأ من صخب ، فخلعت أول شيء لباس المدينة وهو ضيق يرهق الجسم ويحبس الدم ويخنق الحركة ، ثم انطلقت وحدي إلى مكان ذي ظل وهدوء ، على أجد نفسي وخواطري معاً .

وتكبكب الفلاحون يحيون الضيف الذي حل في ديارهم على حين فجأة بعد سنوات من نأي كادت تمحو ورته من الذهن ، وتمسح سماته من الخاطر ، وتطوي تاريخه من الوعي ... الضيف الذي نفض عنه — في لمحة واحدة — أثر المدينة فلبس ثوب الفلاح في غير تمنع، واستاق على ثرى أرضه في غير تحفظ، وأكل طعامه في غير تقزز ، وشرب شرابه في تكمش . ومستني روعة المكان وروعة الاخلاص المتدفق من أغوار النفوس الطيبة الزكية التي ترفل في دثارين من الرضا والقناعة ؛ فأخذت معهم في حديث راح يتشقق فنوناً ، وإن فيه العذوبة والذكرى . ومضت ساعة من زمان وأنا أرقب رجلا منهم نفر عن الجماعة فانتحى ناحية فما شارك في الحديث ولا هش للمجلس ، ولكنه ظل في منأى عنا منطوياً على نفسه وعليه آثار الأسى وفيه علامات الحزن ؛ وتراءى لي كأنه يحمل على عاتقه أعباء السنين العجاف، وراعني أن ينقبض السامر والا كشف عن طوايا نفسه أو انفذ إلى أعماق قلبه ، وإني لأعرفه فتى طروب النفس خفيف الحركة قوي العضل . . أعرفه منذ أن كان أبي رب هذه الأرض وصاحب هذا الغيط وسيد هذا الناس ، ومنذ أن كنت أنا صبيا أرفل في عبث الطفولة وحماقة الصبا .

وناديته فأبى وجاء يتوكأ على عصا وقد حطمته السنون فبدا هيكلا يتداعى من وهن وضعف ، ثم سألته « مالك لا تنغمر في الحديث ولا تندفع في السمر ولا تهتز للطرب ؟ »

فقال « يابني ! إن أبناء المدينة لا يفهمون لغة الريف ولا يستمرئون شكوى المظلوم »

قلت « وي كأنك نسيت أنني ابن الريف وربيبه ، لم تصرفني عنه إلا نوازع العيش ولا دعتني عنه إلا دواعي الوظيفة ! »

قال « ولكنك جئت ترفه عن نفسك باللذة الهادئة ، وتلتمس السكون والراحة من صخب المدينة ، فما كان لي أن أعكر صفو المتعة بشوائب الشكوى، ولا أن أدنس سعادة المرح بأنات الأسى »

قلت « لا بأس عليك ! هات حديثك عسى أن أجد لك فرجة من ضيق أو برءاً من سقام »

فقال في صوت شاع في نبراته الأسى وأفعم رناته الحزن : « أما قصتي فهي قصة الضعف تعصف به القوة العارمة ، قصة الفقر يعبث به الغنى الجارف .

« لعلك ، يابني ، لا تذكر يوم أن تركت غيط أبيك إلى ضيعة سعادة البك ! لقد قلت وإنه ليتراءى لي أنني أفر من ضيق إلى سعة ومن شظف إلى خفض . وكنت — إذ ذاك — فتى في الطمع والطموح في وقت معاً ونسيت أن الثراء العريض لا يرقق القلوب القاسية ، وأن النعمة السابغة لا تداوي الأنفس الشح ، وأن المال

الوفير لايلين العقول الجافة ؛ ولـكننى طرت إلى عزبة البك

«وتقبلنى سعادة البك ورجاله بقبول حسن ، وتقبلت أنا العمل بشوق وأمل ، وانطوت الأيام فاذا أنا أقرب الناس إلى قلب البك ، يسبغ على من نعمته ويحبونى بفضل رعايته ، ثم يقيمنى رئيساً على عماله

« ووجدت فى عملى الجديد معانى السيطرة والسلطان ، وأنا حينذاك — رجل صقلتنى التجارب وشذبتنى الحياة ، فرحت أبذل غاية الجهد وأستنفد وسع الطاقة لأكون اهلا لثقة البك ، وعشت بين العمال أخاً وصديقاً وصاحباً ، وعشت فى النمط أميناً ومخلصاً ، وعشت فى دار سعادة البك خادماً وعبداً ؛ لا أتطاول إلى طمع ولا أتشوف إلى جشع ، ورضيت ورضى أهلى ، وأحسن أولادى بالخفض والسعة ، فاطمأنت نفسى وسكنت جأشتى واستقامت خواطرى ، ولـكن الحوادث لم تنم ...

« وعلى حين غفلة أصاب ابنى الأكبر داء عضال ، فتفزع قلبى واضطربت حياتى لأنه عونى وساعدى ولأنه ابنى ...

«وطرت إلى الطبيب أستشيره وأستعينه على أمرى ، وتحدث الطبيب حديثاً ثلج به صدرى وتطامنت له لوعتى ، ثم بدأ يطب لمرض المريض وأنا أدفع الأجر من عرق الجبين وأجزل العطاء من عناء العمل

« ليت شعرى هل كان الطبيب يسخر من غفلتى ويهزأ من جهلى حين راح يمدنى فى الأمل ويفسح لى فى الرجاء ليخدعنى عن مالى ويستلبنى من كد العمر . آه ، يابنى ، لقد ظل ابنى بين يدى الطبيب شهوراً لا يجد الراحة ولا الشفاء والطبيب يمكر بى ليستنفد طاقتى حتى لصقت يدى بالتراب ولم يبق فى دارى سوى صابة توشك أن تنضب ، ولـكن الأمل ... ومرت الأيام فاذا أنا لا أجد قوت يومى ، وإذا الطبيب ينذرنى فى جفاء وغلظة ... ينذرنى بأن يقذف ابنى إلى عرض الشارع إن أنا لم أشبع نهمه أو أرد غلته

« ياالهى ! ما أغلظ أكباد قوم سيطر عليهم سعار المال فصرفهم عن معانى الانسانية السامية ودفعهم عن رقة الرحمة والشفقة !

« وانطلقت إلى سعادة البك — سيدى — أقص قصة ابنى المريض وهو يقاسى برحاء المرض عند الطبيب ، وأنا أعانى من الفاقه هنا بين يديه ، وطلبت إليه أن يعينى ببعض ماله — بخمسة جنيهات .

«وحدجنى البك بنظرات قاسية ثائرة ثم قال « وإذن فقد شغلك ابنك عن عملى شهورا . لا بأس فهذا أمر أستطيع أن أغفره لك . أما الجنيهات ، فمن ذا الذى أوهمك بأن دارى هى بعض التكايا فتطمع أن تجد فيها مالا غير أجرك الذى تستحق ».

«وانكشف لى قلب سعادة البك عن حجر لا ينبض برحمة ولا يخفق بشفقة فعلت له فى توسل « ولـكننى خادمك منذ زمان وهذا ابنى بين يدى طبيب غلظ الـكبد قاسى الطبع خدعنى عن كل مالى وهو الان يوشك أن يقذف به مريضا إلى عرض الشارع لأننى لا أجد ثمن العلاج ولا ثمن الدواء » .

فقال فى قسوة « لا عجب أن تمن على بعمل نلت أجره مرتين . أما الطبيب ، أما ابنك فلا شأن لى بهما ، فاخرج وإلا ... »

« وخرجت من لدن سعادة البك وأنا أذرف عبارات الأسى واليأس وقد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت ، وحدثتنى شجونى بأن ألقى بنفسى فى أليم لأخلص من حياة لا أحس فيها إلا قلوبا قدت من حجر فما أمسكنى إلا ابنى المريض الذى يترجى عودتى »

« وأنفت نفسى — منذ تلك الساعة — أن أعيش فى كنف البك الذى تكشف لى عن وحش مفترس يتأنق فى مسلاخ إنسان ، وترامى الخبر إلى البك فأقام حارسا على دارى ، ثم طردنى وحبس قوتى وقوت عيالى فما استطعت أن أحمل معى الذرة ولا القمح ... ولا العيش . وتركت الدار التى كنت أسكن فى عزبة البك ... تركتها يوم أن مات ابنى »

« واحر كبدى ! لقد عشت ساعة على قارعة الطريق أذرف لوعة فنى وحرقة فؤادى أمام جثة ابنى المسجاة فى أسمال لأن سعادة البك رفض أن ندخله فى داره ، وأبى فى قسوة أن يمد لى يده فى ساعة المسرة ، ولـكن عماله أعانونى فى الشدة وساعدونى فى الضيق .

« ولا عجب — يا بنى — فان الانسانية حين تتهاوى تسفل فتنضم فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية ! »

كامل محمود حبيب